

الفصل الرابع منهج الشرييني في بيان الإعجاز القرآني

- تمهيد.
- المبحث الأول: علم المعاني.
- المبحث الثاني: علم البيان.
- المبحث الثالث: علم البديع والإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

تمهيد

بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين؛ ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وأيدهم بآيات تؤكد صدق نبوتهم ورسالتهم، وأنهم مصطفون من الله عز وجل، وكانت آياتهم ومعجزاتهم من جنس ما برع به قومهم، فجعل الله معجزات الرسل والأنبياء السابقين حسية، وجعل معجزة الرسول محمد ﷺ عقلية، لفرط ذكاء العرب وكمال أفهامهم وفضلهم على من تقدمهم^(١). فأنزل الله القرآن الكريم على رسوله ﷺ، فكان حجته التي تحدى بها العرب أن يأتوا بسورة من مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]، بل تحدى الإنس والجن جميعاً أن يتظاهروا على الإتيان بمثله: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولما قامت الفتوحات الإسلامية دخلت في الإسلام أمم من غير العرب، فامتزجت ثقافتها بثقافات المسلمين، وأخذ الإسلام يتعرض لحركة طعن وتشكيك من أعدائه الذين هوت دولهم وطمست وثنتهم بنور الإسلام، فكان طبيعياً أن يتوجهوا بطعنهم إلى القرآن؛ لأنه منبع هذا الدين، وبه نهضت الأمة، وعليه قامت أسسها، فأرادوا أن ينقضوا معجزة هذا الدين^(٢).

فالمحددون من أصحاب الديانات السابقة، قد أسلموا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبهم، فأذعنن للدين الحق رقابهم، ولم تدعن نفوسهم، فلم يلبثوا في المجتمع

(١) ينظر: الإتيان في علوم القرآن (٢/٢٥٢).

(٢) ينظر: منهج الزخشري في تفسير القرآن ٢٠٢.

المسلم، ولم يستقروا أن نهضوا لأصل هذا الدين يريدون نقضه، فأعملوا معاولهم طعنًا في كتاب الله، وقد لخص لنا ابن قتيبة مطاعنهم بقوله: «وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ولغوا فيه وهجروا، واتبعوا ﴿مَا تَشَبَّهُ مِنْهُ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَالْغَيَّةُ تَأْوِيلُهُ﴾» [آل عمران: ٤٧] بأفهام كليلية، وأبصار علييلة، ونظر مدخول، فحرفوا الكلام عن مواضعه، وعدوله عن سبيله. ثم قضاوا عليه بالتناقض، والاستحالة واللحن، وفساد النظم والاختلاف، وأدّلوا في ذلك بعلل ربما أمالت الضعيف العُمر، والحديث الغر، واعرضت بالشبه في القلوب، وقدحت بالشكوك في الصدور^(١).

فهبَّ علماء الأمة يردُّون هجماتهم، ويدحضون حججهم، وذلك ببيان الإعجاز القرآني، فنشأت مدرستان في الإعجاز القرآني: المعتزلة، والأشاعرة، وكان رأس المدرسة الأولى إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١هـ) صاحب فكرة «الصَّرْفَةِ» الذي حصر معجزة القرآن في صَرْفِ العرب عن معارضته، وفيما فيه من الأخبار لكل غيب مضى وكل غيب سيأتي^(٢)، ثم أتى تلميذه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وقال بأن القرآن معجز بالصَّرْفَةِ وبالنظم^(٣)، وكان الجاحظ أول من كتب في إعجاز القرآن من الناحية البيانية لبيان إعجازه الذاتي^(٤)، ثم أتى الرُّمَّاني (ت ٣٨٤هـ) ورأى أن إعجاز القرآن يكمن في ترك المعارضة، مع توافر الدواعي، وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، وفي البلاغة، وفي الأخبار

(١) تأويل مشكل القرآن ٢٢، وينظر: منهج الزمخشري ٢٠٢-٢٠٥، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ١٤.

(٢) ينظر: الألوسي مفسرًا ٢٦١، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٥٠-٥٣، دراسات حول القرآن الكريم ١٠١.

(٣) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٥٣-٥٩، الألوسي مفسرًا ٢٦١.

(٤) ينظر: المعجزة الكبرى - القرآن ٨٢.

الصادقة عن الأمور المستقبلية^(١)، ثم أعقبه الخطابي (ت ٣٨٥هـ) الذي رأى أن

(١) ينظر: الألوحي مفسراً ٢٦٢، منهج الزمخشري ٢٠٧، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٦٩-٧٥ قال القائلون (بالصُرْفَةِ): «إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله»، وترجع هذه الفكرة في جذورها إلى الأفكار الهندية التي دخلت على عهد أبي جعفر المنصور، والتي تقول: (إن الناس قد صُرِفُوا عن محاكاة كتابهم المقدس)، وأن رواج هذه الفكرة يؤدي إلى أمرين: أولهما: أن القرآن الكريم ليس في درجة من البلاغة والفصاحة تمتع محاكاته ولا تعجز القدرة البشرية عن أن تأتي بمثله، فالعجز عن محاكاته ليس من صفات القرآن الذاتية. وثانيهما: الحكم عليه بأنه لا يزيد على كلام الناس في شيء من البلاغة أو المعاني. ومهما يكن من بطلان فكرة (الصُرْفَةِ)، فقد أدت إلى إنشاء علوم البلاغة في ظل القرآن، فاتجه الكاتبون إلى بيان أسرار البلاغة في هذا الكتاب المين، المنزل من عند الله الحكيم قرآناً عربياً، فكان هذا الباطل سبباً في خير كثير، وكما يقول المثل السائر (رب ضارة نافعة)، فقد نتج عن هذا الباطل دفاع حكيم، ولدت منه علوم البلاغة العربية، فكما تولد بسبب الخطأ في تلاوة آية (علم النحو)، تولدت بسبب القول بالصرفة (علوم البلاغة العربية)، فإن أكثر ما كتب الأولون في البلاغة والفصاحة كان في ظل القرآن، ومحاولة لبيان إعجازه.

إن أول ما كتب في إعجاز القرآن من ناحية البيان قد تزامن مع القول بالصُرْفَةِ، وأول من عرف أنه تصدى للكلام في إعجاز النظم القرآني هو الجاحظ تلميذ النظام الذي أنكر على النظام قوله، وعابه في منهجه الفكري، حيث كان يظن الظن، ثم يجعله أصلاً يجري عليه القياس، ثم يصحح القياس بالمنطق والعب في أصل القول الذي بنى عليه الفكرة، لا في الأقيسة. ولما كتب الجاحظ كتابه في (نظم القرآن)، وجدنا الباقلاني يعيبه، ليدفع التسليم له بالسبق، ويسبب تعصب لمنهجه الأشعري، استهان الباقلاني بكلام الجاحظ في إعجاز القرآن، بل إنه تعامل عليه في كتاباته كلها، يقول الباقلاني الأشعري في الجاحظ المعتزلي: «كذلك يزعم زاعمون أن كلام الجاحظ من السمات الذي لا يؤخذ فيه، والباب الذي لا يذهب عنه، وأنت تحمد قوماً يرون كلامه قريباً، ومنهجه معيباً، ونطاق قوله ضيقاً... فإذا أردت أن تحقق ذلك فانظر في كتبه في (نظم القرآن) وفي (الرد على النصاري) وفي (خبر الواحد) وغير ذلك مما يجري هذا المجرى». لقد جاء (نظم القرآن) للجاحظ رداً عملياً على كلام النظام الذي أدخله من الهند، وهو مذهب (الصرفة)، وتوالت بعده المؤلفات في إعجاز النظم القرآني، فكان منها كتاب «إعجاز القرآن» للواسطي (ت ٣٠٦هـ) الذي أصل الأصول المشتقة من كلام العرب، ونظمها وطبقها على القرآن، وثبت في التطبيق أنه أعلاها. وهذا الكتاب يعد أصلاً يبنى عليه، فقد شرحه الجرجاني (ت ٤٧١هـ) شرحاً مطولاً أسماه (المعتضد)، وبنى على ما وضع الواسطي كتابه «دلائل الإعجاز» ينظر: المعجزة الكبرى للقرآن ٧٩-٨٨.

إعجاز القرآن يكمن في أمرين: «الوجه الأول في الإعجاز القرآني هو الإحاطة الإلهية بأسرار اللغة، حتى جاء القرآن معجزاً لفظاً ومعنى ونظماً. والوجه الثاني عنده، هو ما للقرآن من أثر نفسي»^(١)، وجاء من بعده القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) الذي ذهب إلى أن القرآن معجزٌ بزوال الاختلاف والتناقض عنه، على ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وأنه معجز بتضمنه الإخبار عن الغيوب^(٢).

وأما المدرسة الثانية (مدرسة الأشاعرة) فقد انبرت للرد على من قال بـ(الصَّرْفَةِ) من المعتزلة، وتفنيد أقوالهم وحججهم فيها، وكان الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) إمام المدرسة في الرد عليهم، ورأى أن إعجاز القرآن يكمن في الإخبار عن الغيوب، وفي أمية الرسول ﷺ، وأن القرآن بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه^(٣). ثم كان من بعده عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) صاحب نظرية (النظم)، الذي أتقنها في كتابه «دلائل الإعجاز» نظرية وتطبيقاً، وهي ترد إعجاز القرآن في النظم والتأليف إلى خصائص في أسلوبه تقف وراء تألق لفظه وبلاغة معناه^(٤). ويبقى الباقلاني والجرجاني أبرز علمين في مدرسة الأشاعرة، وقد أثرًا فيمن جاء بعدهما، فالباقلاني عُني بالجانب الكلامي من النظرية أكثر من عنايته بالجانب التطبيقي، بينما شُغل الجرجاني بالجانب البلاغي التطبيقي من النظرية، ولم يفصل في الجانب الكلامي.

(١) الألوحي مفسراً ٢٦٢، وينظر: منهج الزمخشري ٢٠٧-٢٠٨.

(٢) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ٧٩-٩٠.

(٣) ينظر: المصدر نفسه ٩٦-١١٨، الألوحي مفسراً ٢٦٢.

(٤) ينظر: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة ١٢١-١٥٤، الألوحي مفسراً ٢٦٣، منهج

الزمخشري ٢١١-٢١٥، أساليب الطلب ٥: التحويين والبلاغين ٦٠-٦٨.

ثم جاء الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) الذي اعتمد -على الرغم من اعتزاله- نظرية الجرجاني في (النظم) واتخذها أساساً في تفسير كتاب الله وتحليل آياته، فكان بذلك أول من يطبق نظرية (النظم) تطبيقاً عملياً على نطاق واسع، فكانت عنايته في هذا التفسير تنصبُّ أكثر ما تنصب على بيان نسق (النظم) أو الأسلوب في القرآن، وبيان تعلق الآيات بعضها ببعض، للكشف عن جميع وجوه النظم، أو بعبارة أخرى للكشف عن علاقة النحو بالمعنى^(١).

ثم جاء من بعده الفخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) الذي اهتم ببيان التناسب بين آيات القرآن وسوره، أو ببيان الوحدة الموضوعية للقرآن الكريم^(٢)، حيث عدَّ الرازي هذا الموضوع أهم أوجه الإعجاز القرآني^(٣). كانت هذه خلاصة الآراء في الإعجاز القرآني عند المتقدمين.

اعتمد الشريبي قول الأشاعرة في رد الإعجاز القرآني إلى نظمه وتأليفه، يقول في الآية الكريمة ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]: «فالقرآن معجز في النظم والتأليف والإخبار عن الغيوب، وهو كلام في أعلى طبقات البلاغة، لا يشبه كلام الخلق، ولو كان مخلوقاً لأتوا بمثله»^(٤)، وغلب الشريبي قول الأشاعرة على قول المعتزلة في الإعجاز القرآني، يقول: «وفي وجه كون القرآن

(١) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين ٦٨-٧٢، عبد القاهر الجرجاني، للدكتور أحمد مطلوب ٨٥، البلاغة تطور وتاريخ ٢٢٤-٢٧١، الدراسات النحوية والبلاغية عند الزمخشري ٢٣٥-٢٣٨.

(٢) ينظر: حول (علم التناسب) المبحث الخامس من فصل علوم القرآن ضمن هذا البحث حيث تكلمت حوله بإسهاب.

(٣) ينظر الرازي مفسراً ٢٣٧-٢٤٠.

(٤) السراج المنير (٢/٣٣٥).

معجزًا قولان؛ أحدهما: أنه معجزٌ في نفسه. والثاني: أنه ليس في نفسه معجزًا، إلا أنه تعالى لما صرّف دواعيهم عن الإتيان بمعارضته، وكانت الدواعي متوفرة على الإتيان بهذه المعارضة مع التقديرات المذكورة، يكون نقصًا للعادة، فيكون معجزًا، والقول الأول أظهر^(١)، فالقرآن معجزٌ بفصاحته التي غلبت فصاحة كل بليغ، مع كثرتهم، وإفراطهم في المضادة، وتمالكهم على المغالبة^(٢).

ومن إعجاز القرآن أُمِّيَّةُ الرسول ﷺ، فقد بعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخلة إحدى آياته المعجزة، لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارةً بعد أخرى، بالنظم الذي أنزلَ عليه، فلم يُعَيِّرْه، ولم يُبَدِّلْ ألفاظه، وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبةً ثم أعادها زاد فيها ونقص، فحفظه الله عز وجل على نبيه كما أنزله، وأبانه من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التي باين بينه وبينهم بها، ففي ذلك أنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَشْتَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْتَفُونَ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المنكوت: ٤٤٨]، أي: لقالوا: إنه وجد هذه الأقاويص مكتوبةً فحفظها من الكتب^(٣). وقد قال الشريبي في تفسير الآية الكريمة ﴿فَأَتُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] أن الضمير في ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ يرجع إلى النبي ﷺ أي: فليأت إنسان يساوي محمداً ﷺ في عدم القراءة والكتابة والاشتغال بالعلوم، بسورة تساوي هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز، فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد ﷺ في عدم التعلم والتلمذ معجز، وأن الخلق وإن تلمذوا وتعلموا واطالعوا

(١) المصدر نفسه (٢/٣٣٥، ٤٤٥).

(٢) المصدر نفسه (١/٣٤)، (٢/١٠).

(٣) لسان العرب (أمم).

وتفكروا لا يستطيعون أن يعارضوا القرآن^(١).

وقد تحدى رسول الله ﷺ الخلق بالقرآن على مراتب، وفي تفسير الشريبي لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس: ٢٨] بين هذه المراتب بقوله: «مراتب تحدي رسول الله ﷺ بالقرآن ستة:

أولها: أنه تحداهم بكل القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ثانيها: أنه تحداهم بعشر سور، فقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴿١٣﴾﴾ [مؤد: ١٣].

ثالثها: أنه تحداهم بسورة واحدة، كما قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

رابعها: أنه تحداهم بـ(حديث مثله)^(٢).

خامسها: (أنه)^(٣) في تلك المراتب الأربعة كان يطلب منهم أن يأتي بالمعارضة رجل يساوي رسول الله ﷺ في عدم التلمذة والتعلم، ثم في هذه السورة^(٤) طلب منهم معارضة سورة واحدة من أي إنسان سواء تعلم العلوم أم لم يتعلمها.

(١) ينظر: السراج المنير (٢/٢٠)، الكشاف (١/٢٤١-٢٤٣)، طبعة الحلبي.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤].

(٣) في نص التفسير (أن)، والسياق يقضي (أنه).

(٤) يشير إلى سورة (يونس) الآية ٣٨.

سادسها: (أنه)^(١) في المراتب المتقدمة تحدى (واحدًا)^(٢) من الخلق، وفي هذه المرتبة تحدى جميعهم، وجوز أن يستعين البعض ببعض في الإتيان بهذه المعارضة، كما قال تعالى: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَلَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٢٨]. هاهنا آخر المراتب، فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات أن القرآن معجز^(٣).

إن من المشتغلين بالإعجاز القرآني، من جعل من وجوه إعجازه: (الإعجاز بذكر الغيب)، والغيب المذكور في القرآن نوعان؛ أحدهما: غيب مضي، وهو جزء من القصص، والثاني: غيب سيقع في المستقبل، وكلاهما إعجاز، ووجه الإعجاز في الغيب الماضي وقصصه، أن النبي ﷺ نشأ أميًا لا يقرأ ولا يكتب، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب، حتى يعلم بالتلقين علمهم، وكان قومه أميين، لا يسود فيهم علم من أي طريق كان، إلا أن يكون علم الفطرة والبيان. وتجد في القرآن إخبارًا عن أمور قابلة، وتقع كما أخبر، وصدق في ذلك كله، وذلك لا يكون إلا من عند الله، ولا يمكن أن يكون بالتقدير الشخصي أو الحدسي، فإن ذلك يصدق أحيانًا، ويكذب أحيانًا، والأمر هنا كله صدق، وكان دليلًا على أنه من عند الله العليم الخبير، اللطيف البصير، أودعه كتابه الكريم^(٤).

وكان الشريبي واحدًا من المفسرين الذين عُنوا بما في القرآن من ذكرٍ للغيب، فقد أخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿سَيَقُولُ أَسْفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَنَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ اللَّيُّ كَاوُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]: «الإتيان بالسين الدال على

(١) في نص التفسير (أن)، والسياق يقضي (أنه).

(٢) في نص المطبوع (واحد) وما أثبتته يقتضيه السياق.

(٣) السراج المنير (٢/٢٠).

(٤) ينظر: المعجزة الكبرى - القرآن ٣٦٣-٣٦٦.

الاستقبال من الإخبار بالغيب، فإن قيل: ما فائدة الإخبار بذلك قبل وقوعه؟ أجيب بأن فائدته توطين النفس وإعداد الجواب، فإن مفاجأة المكروه أشد، والعلم به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب إذا وقع، وقبل الرمي يُراشُ السهم^(١).

وقد نصَّ الشرييني على أن الإخبار عن الغيب من دلائل النبوة ومعجزاتها، يقول في الآية الكريمة ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ لَّيْسَ إِلَهُ إِلَّا جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْأِيمَادُ﴾ [آل عمران: ١٢]؛ «في هذه الآية إخبار عن أمر يحصل في المستقبل، وقد وقع خبره على موافقته، فكان هذا إخبارًا بالغيب، فكان معجزة»^(٢).

ويقول في الآية الكريمة ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]؛ «أن هذا النبأ غيب، لأنه ﷺ ما طالع الكتب، ولا تتلمذ لأحد، ولا كانت البلدة بلدة العلماء، وإتيانه ﷺ بهذه القصة الطويلة على وجه لا يقع فيه تحريف ولا غلط، من غير مطالعة ولا تعلم، ومن غير أن يقال إنه حاضر معهم، لا بد وأن يكون مُعجزة»^(٣).

ولما كان الزمخشري أكثر المفسرين عناية بدراسة نظم القرآن وتأليفه، لبيان إعجازه، لأن التحدي وقع عليه، فقد نهج الشرييني منهجه في بيان وجوه الإعجاز القرآني في نظمه وتأليفه، بل هو يرى أنه «ما من حرف ولا حركة في القرآن إلا وفيه فائدة، ثم إن العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل إلى أكثرها، وما أوتي البشر من العلم إلا قليلاً»^(٤)، ومن ذلك أنه أخذ عن الزمخشري قوله

(١) السراج المنير (١/٩٩)، وينظر: الكشاف (١/٣١٧)، طبعة الحلبي.

(٢) السراج المنير (١/١٩٩).

(٣) السراج المنير (٢/١٤٠)، وينظر: الكشاف (٢/٣٤٥-٣٤٦) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على

سبيل المثال: السراج المنير (١/٣٨٠)، (٢/٦٢)، (٣/١٥٥)، (٤/٦٠٨).

(٤) السراج المنير (٣/١٤٦).

في تفسير الآية الكريمة ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدْبَارًا ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]: «فإن قيل: هلا جُزم المعطوف في قوله: ﴿لَا يُنصرون﴾؟ أحيب: بأنه عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنه قيل: ثم أخبركم أنهم لا ينصرون، والفرق بين رفعه وجزمه في المعنى: أنه لو جُزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم، كتولية الأدبار، وحين رفع كان نفي النصر وعداً مطلقاً، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها أو أبشركم بها، بعد التولية، أنه مخذولون، منتفٍ عنهم النصر والقوة، لا ينهضون بعدها بجناح، ولا يستقيم لهم أمر»^(١).

وأخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿وَإِلَى عَادِ أَنَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَنْتَهُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]: «فإن قيل: لم حذف العاطف من قوله: ﴿قَالَ﴾، ولم يقل: (فقال)، كما في قصة نوح^(٢)؟ أجيب: بأن على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال: يا قوم، وقيل: إن نوحاً كان مواظباً على دعوته قومه، غير متوانٍ فيها، لأن (الفاء) تدل على التعقيب. وأما هود فلم يكن كذلك، بل كان دون نوح في المبالغة في الدعاء، فأخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾^(٣).

وعني أيضاً ببيان سر الإعجاز في استعمال كلمة بدل أخرى في النظم

(١) السراج المنير (١/ ٢٤٠)، وينظر: الكشاف (١/ ٤٥٥) طبعة الحلبي. فالشربيني في مواضع كثيرة من تفسيره اقتبس كلام الزمخشري، ومحاوراته في بيان الإعجاز القرآني في نظمه وتأليفه، من دون الإشارة إليه أو إلى تفسيره.

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِذْ قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُورِ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٥٩].

(٣) السراج المنير (١/ ٤٨٥-٤٨٦)، وينظر: الكشاف (٢/ ٨٦-٨٧) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/ ٢٧٦، ٢٥٣)، (٣/ ١٩٣).

القرآني، فقد أخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٤٢]: «فإن قيل: لم قال تعالى: ﴿مُرْضِعَةٌ﴾ ولم يقل: (مُرْضِع)؟، أجيب: بأن (المرضعة) هي التي في حالة الإرضاع ملقمة ثديها للطفل، و(المرضع) التي شأنها أن ترضع وإن لم تبشر الإرضاع في حال (وصفها به)^(١) فقال: ﴿مُرْضِعَةٌ﴾ ليدل ذلك على الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها، تترعه من فيه لما يلحقها من الدهشة^(٢).

وبين أحياناً لماذا استعملت صيغة دون أخرى؟ فقد أخذ عن الزمخشري قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]: «فإن قيل: كيف طابق قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ فإن الأول في ذكر شأن الفاعل لا الفعل، فكان المطابق له (وما آمنوا)؟، أجيب: بأنه عدل إلى ذلك لرد كلامهم بأبلغ وجه وأكده، لأن إخراج ذواتهم من عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم في ماضي الزمان، ولذلك أكد النفي بالباء، ونظيره قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ﴾ [المائدة: ٣٧]، هو أبلغ من قولك: (وما يخرجون منها). وأطلق (الإيمان) على معنى: أنهم ليسوا من الإيمان في شيء، ويحتمل أن يُقَيَّدَ ما قَيَّدُوا به، وهو قوله تعالى: ﴿بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ﴾ لأن ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ جوابه، والآية تدل على أن من ادعى الإيمان، وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد، لم يكن مؤمناً، لأن من تفوه بالشهادتين فارغ القلب عما يوافقهما

(١) ما بين القوسين مأخوذ من قول الزمخشري في (الكشاف)، وهو ما يقتضيه السياق، وقد أثبتة بدلا

من (وضعها) الذي ورد في (السراج المنير).

(٢) السراج المنير (٢/٥٣٦)، وينظر: الكشاف (٤/٣) الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال:

السراج المنير (١/١٤٧)، (٢/٤٥٦)، (٣/١٩)، (٤/١٣٠).

أو ينافيه^(١) لم يكن مؤمناً^(٢).

وعُني في بعض المواطن ببيان سبب اختلاف التعبير في آيتين متقاربتين في الأسلوب والمعنى، يقول في الآية الكريمة ﴿أَيُّكُمْ رَسَلْتُ رَبِّي وَأَنَا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]: «لم قال نوح: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٢] وقال هود: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ [الأعراف: ٦٨] بصيغة اسم الفاعل؟ أجيب: بأن صيغة الفعل تدل على تجذده ساعة بعد ساعة، وكان نوح يدعو قومه ليلاً ونهاراً، كما أخبر تعالى عنه بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، فلما كان ذلك من عادته ذكره بصيغة الفعل فقال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، وأما هود فلم يكن كذلك، بل كان يدعوهم وقتاً دون وقت، فلهذا قال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾^(٣).

وهو في بعض الأحيان يحلل الآية تحليلاً بلاغياً رائعاً مترسماً في ذلك طريقة الزمخشري، يقول في الآية الكريمة ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]: «في هذه الآية أنواع من التأكيد والتشدد على طلب الحج، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ أي: أنه حق واجب لله في رقاب الناس لا ينفكون عن أدائه والخروج عن عهده، ومنها أنه ذكر (الناس) ثم أبدل منه (من استطاع إليه سبيلاً)، وفيه ضربان من التوكيد؛ أحدهما: أن الإبدال ثنية للمراد وتكرير له. والثاني: أن الإيضاح بعد الإبهام، والتفصيل بعد الإجمال، إيراد له في صورتين مختلفتين،

(١) الضمير البارز في قوله (بواقفه أو ينافيه) عائد على (الإيمان).

(٢) السراج المنير (٢٢/١)، وينظر: الكشاف (١٦٩/١-١٧٠) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١٠٠/١، ٢٢٩، ٣٨٤)، (١٨/٣).

(٣) السراج المنير (٤٨٦/١)، وينظر كذلك على سبيل المثال: ٤٨٤، (١٨٢/٢)، (١٣٦/٣)، (٤/٤). (٤٨٤).

ومنها ذكر الاستغناء، وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان، ومنها قوله تعالى: ﴿عن العالمين﴾، ولم يقل: (عنه)، وفيه من الدلالة على الاستغناء عنه برهان، لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء ولا محالة، ولأنه يدل على الاستغناء الكامل، فكان أدلّ على عظم السخط الذي وقع عبارة عنه^(١).

ونهج الشريبي منهج الزمخشري في محاوراته لدفع ما قد يظنه بعضهم تناقضاً في التعبير القرآني، فقد أخذ عنه قوله في الآية الكريمة ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُتِيَ فِيكُمْ مَرْسُلًا﴾ [آل عمران: ١٣]: «فإن قيل: هذا مناقض لقوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُنُودًا مِّنَ السَّمَاءِ لَكُنَّا مِنَ الْغَالِبِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، أجيب: بأنه قللهم أولاً حتى اجترأوا عليهم، فلما لا قوهم كثروا إمداداً من الله تعالى للمؤمنين في أعينهم حتى غلبوا، فكان التقليل والتكثير في حالين مختلفين»^(٢).

وهناك موضوعات كثيرة، تتعلق بالإعجاز البلاغي للقرآن، تناولها الشريبي في تفسيره ووجدت من المناسب أن أوردها مرتبةً وفق علوم البلاغة: المعاني، والبيان، والبديع.

(١) السراج المنير (١/٢٣٥)، وينظر: الكشاف (١/٤٤٨-٤٤٩) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/٤٥٧-٤٥٨، ٦٠٩)، (٢/٣٠٣)، (٣/٥٧٥)، (٤/١٠٩).

(٢) السراج المنير (١/٢٠٠)، وينظر: الكشاف (١/٤١٥) طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/٢٢٤)، (٢/٢١٣)، (٣/٢)، (٤/٤٦٦).

المبحث الأول علم المعاني

وهو علم تُعرف به أحوال اللفظ العربي، والتي بها يُطابق مقتضى الحال^(١). ولا بد لمن يتصدى لتفسير كتاب الله العزيز من الإلمام به، للوقوف على إعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب^(٢).

والموضوعات التي تناولها الشربيني، ولها تعلق بعلم المعاني، يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أولاً: المعاني المجازية التي خرجت إليها أساليب الطلب:

١- الأمر: ومعناه لغةً: طلب إيجاد الفعل^(٣)، واصطلاحاً: طلب إيجاد الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام. فإذا لم يكن استعلاءً أو إلزاماً كان مستعملاً استعمالاً مجازياً^(٤)، ومن المعاني المجازية التي أفادها أسلوب الأمر في القرآن الكريم، والتي ذكرها الشربيني، وكان قد سبق إليها كثير من المفسرين:

(أ) التهديد: يقول في الآية الكريمة ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلٰى مَكَاتِبِكُمْ اِنِّي عَاوِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٥]: «التهديد بصيغة الأمر مبالغة في الوعيد»^(٥).

(ب) طلب المعونة: يقول في الآية الكريمة ﴿اَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [١] «بيان للمعونة المطلوبة، فكأنه قال: كيف أعينكم؟ فقالوا: اهدنا»^(٦).

(١) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة (١٢/١)، التلخيص في علوم البلاغة ٣٧.

(٢) ينظر: علوم البلاغة ٤٢-٤٣.

(٣) ينظر: لسان العرب (أمر).

(٤) ينظر: مفتاح العلوم ١٥٢.

(٥) السراج المنير (١/٤٥١)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (٣/١٦٩).

(٦) السراج المنير (١/١١).

(ج) الخبر: يقول في الآية الكريمة ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَتًّا﴾ [مريم: ٧٥]: «أمر بمعنى الخبر، معناه: فندعه في طغيانه ونمهله في كفره، بالبسط في الآثار، والسعة في الديار، والطول في الأعمار، وإنفاقها فيما يستلذ به من الأوزار»^(١).

٢- الاستفهام: ومعناه لغةً: طلب الفهم^(٢)، وكذلك هو في اصطلاح البلاغيين^(٣).

وإذا كان المُستفهم عالماً بما يستفهم عنه، مُستغنياً عن طلب الإفهام، كان الاستفهام مستعملاً استعمالاً مجازياً^(٤). ومن المعاني المجازية التي أفادها أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم، والتي ذكرها الشرييني:

(أ) التعجب: يقول في الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: استفهام تعجب، أي: اعجب^(٥).

(ب) النفي: يقول في الآية الكريمة ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]: «لفظه استفهام، ومعناه الجحد، أي: لا يهديهم الله، لما علم من تصميمهم على كفرهم، بأنهم كفروا بعد إيمانهم»^(٦).

(ج) التوبيخ والإنكار: يقول في الآية الكريمة ﴿أَرَأَيْتُمْ أَن تَأْخُذَ مِمَّا يَخْتَلِقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]: «استفهام توبيخ وإنكار، أي: فلم يقدر

(١) السراج المنير (٢/٤٣٢)، وينظر: الكشاف (٢/٥٢١) طبعة الحلبي.

(٢) ينظر: لسان العرب (فهم).

(٣) ينظر: عروس الأفراح - شروح التلخيص (٢/٢٤٦).

(٤) ينظر: حسن التوسل إلى صناعة الترمز ٢٣١.

(٥) السراج المنير (٤/٥٨٧).

(٦) السراج المنير (١/٢٣٠).

بعد التكلف والتعب على غير البنات التي هي أبغض الجزأين إليكم، ثم عطف على قوله تعالى: ﴿أَتَّخَذَ﴾ ليكون منفيًا على أبلغ وجه لكونه في حيز الإنكار^(١).

(د) التنبيه: يقول في الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٢٥]: «في هذا الاستفهام تنبيه على أن ذلك منتهى ما تبلغه القوة البشرية»^(٢).

ومن المعاني الأخرى التي خرج إليها أسلوب الاستفهام، وذكرها الشريبي: التقرير^(٣)، والتبكيث^(٤)، والتشويق^(٥)، والتفريع^(٦)، وغيرها.

٣- النداء: ومعناه لغة: الصَّوْتُ، و(ناداه) و(نادى به) بمعنى: صاح به. ومعناه اصطلاحًا: (طلب إقبال المدعو على الداعي بأحد حروف مخصوصة)^(٧). وإذا استعمل النداء في غير طلب الإقبال، كان مُستعملًا استعمالًا مجازيًا، ومن المعاني المجازية التي أفادها أسلوب النداء في القرآن الكريم، والتي ذكرها الشريبي:

(أ) التلهف: يقول في الآية الكريمة ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]: «أي: ينادمتنا، والحسرة: التلهف على الشيء الفائت وشدة التألم، ونداؤها مجاز، أي: هذا أوانك فاحضري»^(٨).

(١) السراج المنير (٣/٥٥٧).

(٢) السراج المنير (١/٣٣٥).

(٣) ينظر: المصدر نفسه (٣/١٥٤).

(٤) ينظر: المصدر نفسه (٤/٤٩٢).

(٥) ينظر: المصدر نفسه (١/١٥٧).

(٦) ينظر: المصدر نفسه (٢/٦٥٤).

(٧) عروس الأفراح - شرح التلخيص (٢/٣٣٣).

(٨) السراج المنير (١/٤١٧)، وينظر: الكتاب (٢/٢١٧-٢١٨).

(ب) التكريم والتنويه بالفضل: يقول في الآية الكريمة ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّىٰ اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٤١]: «جعل الله تعالى نداء تنبيه ﷺ به (النبي) و(الرسول) في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّىٰ اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٤١]، ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لَدَىٰ حَرَمٍ﴾ [التحریم: ٤١]، ﴿يَتَأْتِيَ الرَّسُولَ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وترك نداءه باسمه، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهِمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ﴿يَكْمُوسُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَلْبِيسُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَنذَرُودُ﴾ [ص: ٢٦]، كرامة وتشريفًا وتنويهاً بفضله»^(١).

ثانيًا: أحوال الجملة العربية:

١- الحذف: «وهو باب دقيق المسلك، لطيف المآخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجذك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبين، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنتظر»^(٢)، وإنك قد ترى الجمال والروعة تتجلى في الكلام إذا أنت حذف أحد ركني الجملة أو شيئًا من متعلقاتها، وإذا أبرزت ذلك المحذوف صار الكلام غثًا لا صلة بينه وبين ما كان عليه أولًا^(٣). وللحذف أغراض بلاغية، أورد الشرييني قسمًا منها، ومن هذه الأغراض:

(أ) المبالغة في التشبيه: يقول في الآية الكريمة ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٣]: «إن الدرجات متفاوتة، فهو تشبيه بليغ بجذف الأداة، أي: هم مثل الدرجات في التفاوت»^(٤).

(١) السراج المنير (٣/٢١٧).

(٢) دلائل الإعجاز ١٧٨.

(٣) ينظر: علوم البلاغة ٨٢.

(٤) السراج المنير (١/٢٦٢).

(ب) الإعلام بأن الحكم واحدٌ: يقول في الآية الكريمة ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ الْفَتْرُ وَالْيَسِيرُ وَالْأَهْصَابُ وَالْأَذْلَمُ رِيحٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ [المائدة: ٩٠]: «(رجسٌ) أي: خبيث مستقذر، وإنما وُحِدَ الخبر للنص على الخمر، والإعلام بأن أخبار الثلاثة حذفت وقدرت لأنها أهل لأن يقال في كل واحدة منها على حدثها كذلك، ولا يكفي عنها خبر واحد على سبيل الجمع»^(١).

(ج) التعظيم: يقول الشريبي في الآية الكريمة ﴿وَيَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]: «حذف المُبَشِّرُ به للتعظيم، فكأنه قيل: وبشرهم بما يحلُّ عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام»^(٢).

ومن أقسام الحذف: (الحذف المقابل)^(٣)، وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيُحذفُ من كل واحدٍ منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه^(٤)، وحذا الشريبي حذو البقاعي في تسميته بـ(الاحتباك)^(٥). يقول في الآية الكريمة ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]: «الآية من (الاحتباك)، لأنه نفى أولاً إدراك الشمس لقوتها القمر، وفيه دليل على ما حذف من الثاني من نفي إدراك (القمر للشمس)^(٦) أي: فيغلبها وإن كان يوجد في النهار، لكن من غير سلطته فيه بخلاف الشمس فإنها لا تكون في الليل أصلاً، ونفى ثانياً سبق الليل والنهار، وفيه دليل على حذف سبق النهار الليل

(١) السراج المنير (١/٣٩٥).

(٢) السراج المنير (١/٦٥٤).

(٣) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (١/٥٥-٥٧).

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/١٢٩)، التعريفات ٣٢، السراج المنير (٣/١٧٤).

(٥) ينظر: الإتيان في علوم القرآن (٢/١٣١-١٣٢)، معترك الأقران في إعجاز القرآن (١/٢٤٢-٢٤٣).

(٦) وتسميته بـ(الاحتباك) يريدون به إحكام نسج الكلام، من (حبكت الثوب) إذا أحكمت نسجه، وكل شيء أحكمته وأحسنتم عمله، فقد أحكته. ينظر: لسان العرب (حبك).

(٦) في الأصل المطبوع (إدراك الشمس للقمر) وما أثبتته هو ما يقتضيه السياق.

أولاً كما قدرته^(١).

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ^(١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ ^(٢) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ ^(٣) ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ ^(٤) [القارعة: ٦-٩] يقول: «الآية من الاحتباك، ذكر العيشة أولاً دليل على حذفها ثانياً، وذكر الأم ثانياً دليل على حذفها أولاً»^(٥).

٢- التعريف والتكثير: إن تعريف بعض أجزاء الجملة، وتكثير بعضها، إنما يكون لأغراض يريد بها المتكلم، منها: (التعظيم) يقول في الآية الكريمة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]: «كلام في غاية الفصاحة والبلاغة، حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف (القصاص) ونكّر (الحياة) ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعاً من الحياة عظيماً، وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة»^(٦)، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِإِعْتَادٍ﴾ [الحشر: ١٨]: «نكّر (الغد) لتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قال: الغد لا تعرف كميته لعظمته»^(٧).

٣- الإضمار والإظهار: ويعدُّ هذا من باب خروج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر، فيوضع المضمّر موضع المظهر، وقد يعكس الأمر فيوضع المظهر موضع المضمّر، وذلك لأغراض وفوائد بلاغية^(٨). يقول الشريبي في الآية الكريمة ﴿ذَلِكَمُ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ ^(٩) [الأنفال: ١٤]: ﴿ذَلِكَمُ﴾ خطاب للكفرة... أي: ذلكم الذي عجل لكم بيد من القتل

(١) السراج المنير (٣/٣٥١).

(٢) السراج المنير (٤/٥٨٠)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (٢/٢٨١)، (٣/٥٣٤)، (٤/٤٥٤).

(٣) السراج المنير (١/١١٦).

(٤) السراج المنير (٤/٢٥٦).

(٥) ينظر: الإيضاح (١/٦٨).

والأسر، ﴿فَدُوُّوهُ﴾ عاجلاً، ﴿وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ﴾ آجلاً في الآخرة ﴿عَذَابٍ أَلْتَارٍ﴾، وضع الظاهر فيه موضع المضمرة للدلالة على أن الكفر سبب للعاجل والآجل^(١). ويقول في الآية الكريمة ﴿وَلَا يَتَّوَلُّوكَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]: ﴿وَلَا يَتَّوَلُّوكَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا﴾ أي: قتلاً أو أسراً أو غنيمة أو هزيمة، ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي: ثواب جزيل عند الله تعالى يجازيهم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: لا يترك ثوابهم. وأظهر موضع الإضمار تبيينها على أن الجهاد إحسان^(٢).

٤- الوصل والاستئناف: ويسمى أيضاً (الفصل والوصل)، وهو العلم بمواضع العطف والاستئناف، للاهتمام إلى إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند عدم الحاجة إليها^(٣)، فالوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه^(٤).

وقد نهج الشريبي منهج الزمخشري في بيان النواحي البلاغية للوصل أو الاستئناف في الكلام، فقد أخذ عنه قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اتَّبَعَتْ وُجُوهُهُمْ فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧]: «فإن قيل: ما فائدة قوله تعالى: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بعد قوله: ﴿فَنِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾؟ أجيب: بأن فائدته أنه أخرج مخرج الاستئناف والتأكيد كأنه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال: هم فيها خالدون، لا يضعون عنها ولا يموتون»^(٥).

(١) السراج المنير (١/٥٦١).

(٢) ينظر: السراج المنير (١/٦٦٠).

(٣) ينظر: علوم البلاغة ١٤٧-١٤٨.

(٤) ينظر: الإيضاح (١/١٤٧-١٤٨)، التلخيص ١٧٥.

(٥) السراج المنير (١/٣٣٩)، وينظر: الكشاف (١/٤٥٤) طبعة الحلبي.

وقد أخذ الشريبي عن الزمخشري قوله في (الاستئناف البياني)، يقول في الآية الكريمة ﴿وَيَقْوَمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: ٤٩٣]: «فإن قيل: لم لم يقل: (فسوف تعلمون)؟ أجيب: بأن إدخال (الفاء) وصل ظاهر عرف موضوع للوصل، وأما حذف (الفاء) فيجعله جواباً عن سؤال مقدر، وهو المسمى في علم البيان بـ(الاستئناف البياني)، وتقديره: أنه لما قال: ﴿وَيَقْوَمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ﴾ فكأنهم قالوا: فماذا يكون بعد ذلك؟ فقال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فظهر أن حذف حرف (الفاء) هاهنا أكمل في بيان الفصاحة والتهويل؛ لأنه استئناف»^(١).

٥- الإيجاز والإطناب: والإيجاز: أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة، والإطناب: أداؤه بأكثر منها^(٢). فمن الإيجاز الآية الكريمة ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦] وقد أخذ الشريبي عن الزمخشري قوله في تفسيرها: «أي: أردتم القيام إليها، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [النحل: ٩٨]، عبّر عن إرادة الفعل بالفعل المسبب عنها، للإيجاز والتنبية على أن من أراد العبادة ينبغي أن يبادر إليها بحيث لا ينفك الفعل عن الإرادة»^(٣).

ومن الإطناب الآية الكريمة ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقد نقل الشريبي قول الزمخشري في تفسير الآية الكريمة «وقال الزمخشري: . . . هذا الكلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل، لغرض المبالغة في نفي الولد، والإطناب فيه، وأن لا يترك الناطق به شبهه إلا مضمحلة، مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد، ذلك أنه علق العبادة بكينونة

(١) السراج المنير (٢/٧٦)، وينظر: الكشاف (٢/٢٨٩-٢٩٠) طبعة الحلبي.

(٢) ينظر: التلخيص ٢٠٩-٢١٠، التعريفات ٥١، ٦٥.

(٣) السراج المنير (١/٣٥٧)، وينظر: الكشاف (١/٥٩٦) طبعة الحلبي.

الولد، وهي محال في نفسها، فكان المعلق بها محالاً مثلها، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة، وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها. . . وقد تحمل الناس بما أخرجوه (به)^(١) من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد، المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه. اهـ^(٢).

وقد يجتمع التفصيل والإجمال في كلام واحد، كما في الآية الكريمة ﴿وَمَا تَلَكَ يَمِينِكَ بِمُؤْمِنٍ﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ [طه: ١٧، ١٨]، يقول الشريبي: «لما سأل تعالى موسى عليه السلام عن ذلك، أجاب بأربعة أشياء: ثلاثة على التفصيل، وواحدة على الإجمال، أولها: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾، ثانيها قوله: (أتوكأ عليها)، وثالثها قوله: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾، ورابعها قوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾»^(٣).

٦- التكرير: يرى الشريبي أن «كل تكرير جاء في القرآن فمطلوبٌ به تمكين المكرر في النفوس وتقريره»^(٤)، يقول في الآية الكريمة ﴿فَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (١١) [الرحمن: ١١٣]: «كُرِّرَ هذه الآية في هذه السورة في أحدٍ وثلاثين موضعاً، تقريراً للنعمة وتأكيذاً في التذكير، وفصل بين كل نعمتين بما ينبههم عليها، ليفهمهم النعم ويقررهم بها، كما تقول لمن تتابع عليه إحسانك وهو يكفره وينكره: (ألم تكن فقيراً فأغنيتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملاً فعززتك، أفتنكر هذا؟ ألم تكن راجلاً فحملتك، أفتنكر هذا؟) والتكرير حسنٌ في مثل هذا، قال القائل:

كم نعمة كانت لكم كم كم وكم^(٥)

(١) ما بين القوسين مأخوذ من نص الزمخشري في «الكشاف» وهو ما يقتضيه السياق.

(٢) السراج المنير (٣/٥٧٦)، وينظر: الكشاف (٣/٤٩٧) طبعة الحلبي.

(٣) ينظر: السراج المنير (٢/٤٥٥)، الكشاف (٢/٥٣٣-٥٣٤).

(٤) ينظر: السراج المنير (١/١٥)، الكشاف (٤/٤٤).

(٥) لم أجد هذا الشاهد في «معجم شواهد العربية».

وقال آخر:

لا تقتلي مسلماً إن كنت مسلمة إياك من دمه إياك إياك^(١)
وقال آخر:

لا تقطعن الصديق ما طرفت عينك من قول كاشح أشر
ولا تملنَّ يوماً زيارته زُره وُزَّه وُزَّه وُزَّه وُزَّه^(٢)

وقال الحسن بن الفضل: التكرير طرد للغفلة، وتأکید للحجة... وذهب ابن قتيبة^(٣) إلى أن التكرير لاختلاف النعم، فلذلك كرر التوقيف مع كل واحدة^(٤)، وكذلك هي الغاية من تكرير القصص في القرآن الكريم عند الشريبي، يقول: «إن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا بتريده ما يراد حفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن في القلب، وأرسخ في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان (وَقُرْنَ عَنِ)^(٥) الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، ورجعت بالترديد والتكرير، لعل ذلك يفتح آذاناً، أو يشق ذهنًا، أو يصقل عقلاً طال عهده بالصقل، أو يجلو فهمًا قد غطى عليه تراكم الصدا»^(٦).

وذكر الشريبي للتكرير في القرآن الكريم معاني أخرى منها: التنبيه على الاتصاف بكل واحدة من الصفات المذكورة بعد الاسم المكرر، فقد أخذ عن

(١) لم أجد هذا الشاهد في «معجم شواهد العربية».

(٢) لم أجد هذا الشاهد في «معجم شواهد العربية».

(٣) ينظر: تأويل مشكل القرآن ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) السراج المنير (٤/٦٠-١٦١).

(٥) في الأصل المطبوع (وقر عن)، وما أثبتته هو ما يقتضيه السياق.

(٦) المصدر نفسه (٣/٢٣)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (١/٣٩٦)، (٢/٦٢-٦٣)، (٣/٣١٨)،

الزنجشري قوله في الآية الكريمة ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]: «كُرِّرَ فِيهِ اسْمُ الْإِشَارَةِ تَنْبِيْهَا عَلَىٰ أَنْ اتَّصَفَاهُمْ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ يَقْتَضِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِخْتِصَاصِيِّينَ، وَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَانَ فِي تَمْيِزِهِمْ بِهَا عَنْ غَيْرِهِمْ، فَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَىٰ مَجْمُوعَهُمَا»^(١).

ومنها أيضًا: الاستمرارية^(٢)، والمبالغة^(٣)، والتنبية^(٤)، والاستعطاف^(٥)، والشفقة^(٦)، والتوبيخ^(٧).

٧- التقديم والتأخير: وهو باب كثير الفوائد، جَمُّ المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتَرُّ لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى كلامًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قُدِّمَ فيه شيءٌ، وحُولَ اللفظ عن مكانٍ إلى مكانٍ^(٨).

وللتقديم في القرآن الكريم أغراض بلاغية، وذكر منها الشريبي:

(أ) التعظيم والاهتمام والدلالة على الحصر: يقول في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: «فإن قيل: لم قُدِّمَ المفعول؟ أجب: بأن تقديمه للتعظيم والاهتمام والدلالة على الحصر»^(٩).

(١) السراج المنير (١٩/١)، وينظر: الكشاف (١٤٥/١) طبعة الحلبي.

(٢) ينظر: المصدر نفسه (١٥٨/١).

(٣) ينظر: المصدر نفسه (٢٧٦/١).

(٤) ينظر: المصدر نفسه (٣٠٧/٢).

(٥) ينظر: المصدر نفسه (٥٩٤/٣).

(٦) ينظر: المصدر نفسه (٦٠/٤).

(٧) ينظر: المصدر نفسه (٢٣٥/١).

(٨) ينظر: دلائل الإعجاز ١٤٢، البرهان في علوم القرآن (٢٣٣/٣)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (٣٢٥/٢).

(٩) السراج المنير (١١/١)، وينظر: الكشاف (٦١-٦٢/١).

(و) الاهتمام: يقول في الآية الكريمة ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾ [الضحى: ٩-١١]: «فإن قيل: ما الحكمة في أن الله تعالى أحر حق نفسه عن حق اليتيم والسائل؟ أجيب ب: كأنه يقول: أنا أغني الأغنياء، وهما محتجان، وحق المحتاج أولى بالتقديم»^(١).

وإضافة إلى هذه المعاني ذكر: السببية^(٢)، والتدني من الأعلى إلى الأدنى^(٣)، والترقي من الأدنى إلى الأعلى^(٤)، والسبب^(٥).

(١) السراج المنير (٤/٥٥٤).

(٢) ينظر: المصدر نفسه (٢/٦١٥).

(٣) ينظر: المصدر نفسه (٣/٢٦٨).

(٤) ينظر: المصدر نفسه (٣/٢٧٨).

(٥) ينظر: المصدر نفسه (٣/٢٧٨).

المبحث الثاني علم البيان

معنى البيان لغة: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وأصله: الكشف والظهور^(١). ومعنى (علم البيان) اصطلاحاً: «معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة، بالزيادة في وضوح الدلالة عليه، وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»^(٢).

والموضوعات التي تناولها الشرييني، ولها تعلق بعلم البيان، يمكن تصنيفها على النحو الآتي:

أولاً: المجاز: ومعناه لغة مأخوذ من (جازَ الموضعَ، يُجوزُهُ) إذا تعداه وعبّر عليه، و(تجاوز بهم الطريق، وجاوزه جوازاً): خَلَفَهُ^(٣)، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَوْرًا يَبِيحُ إِسْرَهُ يَلِ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. ومعناه اصطلاحاً: أن تذكر الكلمة وأنت لا تريد معناه الحقيقي، الذي وُضعت له في أصل اللغة، ولكن تجاوزه إلى غيره، لمناسبة بينهما^(٤).

وقد انقسم المشتغلون بعلم القرآن وتفسيره، في شأن اشتمال القرآن على المجاز إلى ثلاث فئات: فئة أولى أنكرت وجوده فيه، لأنها نظرت إلى (المجاز) على أنه عكس (الحقيقة). وفئة ثانية: أسرفت في قولها بوجود المجاز فيه. وفئة ثالثة هي أكثرهم لم تتكبر وجود المجاز في القرآن، لأنه نزل بلغة العرب،

(١) ينظر: لسان العرب (بين).

(٢) مفتاح العلوم ٧٧، وينظر: فنون بلاعية ١١-٢٦.

(٣) ينظر: لسان العرب (جوز).

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ٢٨٦، التعريفات ٢٥٦.

وخطبهم بما اعتادوه وألفوه من أساليب الكلام، ومنها المجاز، ولكنها فئة مُقتصدة، لم تُسرف في القول بوجود المجاز في القرآن^(١).

ومن خلال تتبع أقوال الشريبي وآرائه في تفسيره، نستطيع القول: إنه من (الفئة الثالثة)، فقد قال بوجود المجاز في القرآن الكريم، ولكنه لم يسرف فيه، وما أورده من مجاز نستطيع أن نصنّفه على النحو الآتي:

١- المجاز في التركيب: أو ما يسمى بـ(المجاز العقلي)، والمجاز فيه لا يكون في ذوات الكلمِ وأنفس الألفاظ، ولكن في إسنادها إلى غيرها^(٢)، وذلك بأن يسند الفعل أو شبهه إلى غيرها ما هو له أصالة^(٣).

وهذا الضرب من المجاز، على حدته، كثر من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ، في الإبداع والإحسان، والانتساع في طريق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعاً مصنوعاً، وأن يضعه بعيد المرام، قريباً من الأفهام^(٤)، ومن علاقاته:

(أ) الإسناد إلى ما ليس بفاعل حقيقي: يقول في الآية الكريمة ﴿فَأَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٦١]: «من الإسناد المجازي، وإقامة القابل، وهي (الأرض) لأنها قابلة للنبات، مقام الفاعل»^(٥).

(ب) إسناد ما بُني للفاعل إلى المفعول: يقول في الآية الكريمة ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ

(١) ينظر: أساليب المجاز في القرآن الكريم ٩٦-١٠٦ (أطروحة دكتوراه).

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز ٢٨٦.

(٣) ينظر: الإتيان في علوم القرآن (٧٧/٢)، معترك الأقران (١٨٦/١)، الإيضاح (٣٠٤/٢)، علوم البلاغة ٢٧٠، التعريفات ٢٥٦-٢٥٧.

(٤) ينظر: دلائل الإعجاز ٢٨٧-٢٩٣.

(٥) السراج المنير (٦٤/١).

دَافِعٍ ﴿١﴾ [الطلاق: ٦]: «أي: مدفوق، (فاعل) بمعنى (مفعول)، كقوله تعالى: ﴿فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]»^(١).

٢- المجاز في اللفظ: أو ما يسمى بـ(المجاز اللغوي)، وهو استعمال الكلمة المفردة في غير ما وُضعت له في أصل اللغة^(٢)، ومن علاقاته:

(أ) مجازٌ حذف المضاف: وهو ما حُذف منه (المضاف)، وأُقيم (المضاف إليه) مقامه^(٣)، ويسمى أيضاً (إطلاق لفظ المحل وإرادة الحال)، يقول في الآية الكريمة ﴿وَسَلِّ الْأَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]: «أي: أهلها، على حذف المضاف، وهو مجاز مشهور وقيل: إنه مجاز، ولكنه من (إطلاق المحل وإرادة الحال)»^(٤).

وقد أنكر بعض العلماء وجود المجاز بالحذف، لأن المجاز استعمال اللفظ في غير موضعه، والحذف ليس كذلك^(٥)، ومن الذين قالوا به وأثبتوه الإمام عبد القاهر الجرجاني^(٦).

(ب) تسمية الشيء بما يثول إليه: يقول في الآية الكريمة ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١]: «مجاز باعتبار المالك، أي: لا تفعلوا ما يؤدي إلى الفساد. وليس معنى (الإفساد) هنا الإتيان بالفساد، ليصح حمل الكلام على الحقيقة»^(٧).

(١) السراج المنير (٤/٥١٧).

(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٢٨٦، ينظر: الإتيان في علوم القرآن (٢/٧٨)، معترك الأقران (١/١٨٧)، الإيضاح (٢/٢٧٠)، علوم البلاغة ٢٢٨، التعريفات ٢٥٧.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز ٢٩٢.

(٤) السراج المنير (٢/٢٢٩)، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/٢٣).

(٥) ينظر: الإتيان في علوم القرآن (٢/٧٨)، معترك الأقران (١/١٨٧).

(٦) ينظر: أسرار البلاغة ٣٦٢، دلائل الإعجاز ٢٩٢.

(٧) السراج المنير (١/٢٤)، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (٢/١٠٧).

(ج) تسمية الكل باسم البعض أو الجزء: يقول في الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤٤]: «عَبَّرَ عَنْهُ بِلَفْظِ الْمُضِيِّ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُ مَتْرُقِبًا، تَغْلِييًا لِلْمَوْجُودِ عَلَى مَا لَمْ يَوْجَدْ، فَيَكُونُ مَجَازًا بِاعْتِبَارِ تَسْمِيَةِ الْكُلِّ بِاسْمِ الْبَعْضِ، أَوْ تَنْزِيلًا لِلْمَسْتَنْزَلِ مِنَ الْوَاقِعِ...»^(١)، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المسلمات: ٤٨]: «أَي: صَلُّوا الصَّلَاةَ الَّتِي فِيهَا الرُّكُوعُ... وَأَطْلَقُوهُ عَلَيْهَا تَسْمِيَةً لَهَا بِاسْمِ جُزئِهَا، وَخُصَّ هَذَا الْجُزْءُ لِأَنَّهُ يُقَالُ عَلَى الْخُضُوعِ وَالطَّاعَةِ، وَلِأَنَّهُ خَاصٌّ بِصَلَاةِ الْمُسْلِمِينَ»^(٢).

ويقول في الآية الكريمة ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦]: «جَعَلَ (اليد) الَّتِي هِيَ حَقِيقَةٌ (إِلَى الْمَنْكَبِ) مَجَازًا (إِلَى الْمَرْفِقِ)، مَعَ جَعَلِ (إِلَى) غَايَةَ لِلغَسْلِ الدَّاخِلَةَ هُنَا فِي الْمَغْيَا»^(٣)، بِقَرِينَةِ الْإِجْمَاعِ وَالِاحْتِيَاطِ لِلْعِبَادَةِ، وَالْمَعْنَى: اغْسِلُوا أَيْدِيَكُمْ مِنْ رِءُوسِ الْأَصَابِعِ إِلَى الْمَرَافِقِ. أَوْ تَجْعَلُ بَاقِيَةَ عَلَى حَقِيقَتِهَا إِلَى الْمَنْكَبِ، مَعَ جَعَلِ (إِلَى) غَايَةَ لِلتَّرِكِ الْمَقْدَّرِ، فَتَخْرُجُ الْغَايَةُ، وَالْمَعْنَى: اغْسِلُوا أَيْدِيَكُمْ، وَاتْرَكُوا مِنْهَا إِلَى الْمَرَافِقِ»^(٤).

ثانيًا: الاستعارة: وهي لغة مأخوذة من (العاريّة) -بالتشديد- وهي: الْمَيْئِخَةُ^(٥)، و(استعار): طَلَبَ الْعَارِيَّةَ، و(استعاره الشيء) و(استعاره منه): طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُعِيرَهُ إِيَّاهُ^(٦)، وَمَعْنَاهَا اصْطِلَاحًا: «أَنْ تَذَكَرَ أَحَدَ طَرَفِي التَّشْبِيهِ،

(١) السراج المنير (١٩/١).

(٢) السراج المنير (٤٦٧/٤).

(٣) المغيا: بضم الميم وتشديد الياء، ما وضعت الغاية له، نحو غسل اليدين إلى المرفقين، فالرفقان غاية، والغسل (مغيا). ينظر: معجم لغة الفقهاء ٤٤٤.

(٤) السراج المنير (٣٥٧/١)، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير ٢٩، ٣٢٨، ٦٠٩، (٢/٥٤١).

(٥) ينظر: لسان العرب (غير)، والأصل في (المَيْئِخَةُ) أَنْ يَجْعَلَ الرَّجُلُ لِبْنِ شَاتِهِ أَوْ نَاقَتِهِ لِأَخْرَاسَةً، ثُمَّ جَعَلَتْ كُلُّ عَطِيَّةٍ مَيْئِخَةً، يَنْظُرُ: لِسَانَ الْعَرَبِ (منح).

(٦) ينظر: لسان العرب (عور).

وتريد به الطرف الآخر، مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به، دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به^(١).

وقد نهج الشريبي نهج الزمخشري في بيان ما اشتمل عليه الكتاب العزيز من بديع الاستعارة ونادرها، ومن ذلك قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]: «استعير (الذوق) لإدراك أثر الضرر، و(اللباس) لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاعة عليه، على (لباس الجوع والخوف)، بالنظر إلى المستعار له، كقول كثير عزة:

عَمَّرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا خَلَقْتُ لَضَحِكَتِهِ رِقَابَ الْمَالِ^(٢)

فإنه استعار (الرداء) للمعروف؛ لأنه يصون عرض صاحبه، صون الرداء لما يلقي عليه، وأضاف إليه (الغمر) الذي هو وصف المعروف والنوال، لا وصف الرداء، نظراً إلى المستعار له، ولو نظر إلى المستعار لقال: (ضافي الرداء) أي: سابعه، ومعنى البيت: إذا ضحك المستول ضحكة أيقن السائل بذلك التبسم استرقاق ماله وأنه يعطي بلا خلاف. وقد نظر إلى المستعار كقوله:

يَنَازِعُنِي رِدَائِي عَبْدَ عَمْرٍو رَوَيْدِكَ يَا أَخَا عَمْرٍو بْنِ بَكْرٍ
لِي الشُّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ بِمِيزَانِي وَدُونِكَ فَاعْتَجِرْ مِنْهُ بِشَطْرٍ^(٣)

استعار (الرداء) للسيف، ثم قال: (فاعتجر) نظراً إلى المستعار، ولو نظر إلى (المستعار منه) لقال تعالى في الآية الكريمة: (وكساهم لباس الجوع والخوف) ولقال كثير: (ضافي الرداء إذا تبسم ضاحكاً)، وهذه نهاية ما يقال في الاستعارة^(٤).

(١) مفتاح العلوم ١٧٤، وينظر: أسرار البلاغة ١٥، فنون بلاغية ١٢٣-١٢٨.

(٢) البيت من الكامل، ورد في الخصائص (٤٤٧/٢)، الإيضاح ٣٠٠، لسان العرب (غمر) ديوانه

٢٨٨.

(٣) لم أجد هذا الشاهد في معجم شواهد العربية ولا في كتب تخريج الشعر.

(٤) السراج المنير (٢/٢٦٥-٢٦٦)، وينظر: انكشاف (٢/٤٣١-٤٣٢) طبعة الحلبي.

ويقول في الآية الكريمة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣]: «أي: بدينه، وهو دين الإسلام، استعار له (الحبل) من حيث التمسك به سبب النجاة من الردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة من التردى»^(١).
وتناول أيضًا الاستعارة التخيلية^(٢)، والتبعية^(٣)، والتصريحية^(٤)، والمكنية^(٥).

ثالثًا: التشبيه: ومعناه لغة: التمثيل، (وَسَبَّهَهُ بِهِ): مَثَلُهُ^(٦). ومعناه اصطلاحًا: «الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى»^(٧).

وقد تتبع الشريبي التشبيهات القرآنية، وبيّن ما فيها من روعة بيان، يقول في الآية الكريمة ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]: «إنما لم يشبها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة؛ لأن الحديد قابل للين، فإنه يلين بالنار، وقد لان لداود عليه السلام، والحجارة لا تلين قط»^(٨)، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَوَّ يَجِدُهُ سَائِغًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُمْ﴾ [النور: ٣٩]: «وجه التشبيه أن الذي جاء به الكافر، إن كان من أفعال البر، فهو لا يستحق عليه ثوابًا، مع أنه يعتقد أن له ثوابًا عليه، وإن كان من أفعال الإثم، فهو يستحق عليه العقاب، مع أنه يعتقد أن له ثوابًا، فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابًا عند الله تعالى، فإذا وافى عرصة القيامة، ولم يجد

(١) السراج المنير (١/٢٣٧)، وينظر: الكشاف (١/٤٥٠-٤٥١) طبعة الحلبي.

(٢) ينظر: المصدر نفسه (٢/٢٩٧).

(٣) ينظر: المصدر نفسه (٣/٢٤٩).

(٤) ينظر: المصدر نفسه (١/٥٢٠).

(٥) ينظر: المصدر نفسه (١/٣٦٤، ٤٣٩).

(٦) ينظر: لسان العرب (شبه).

(٧) الإيضاح ٢١٣، وينظر: فنون البلاغة ٣٠-٣٣، التعريفات ٨٥-٨٦.

(٨) السراج المنير (١/٧١).

الثواب، بل وجد العقاب العظيم، عظمت حسرته، وتناهى غمه، فيشبهه حاله حال الظمان الذي اشتدت حاجته إلى الماء، فإذا شاهد السراب في البر تعلق به قلبه، فإذا (جاءه)^(١) لم يجده شيئاً، فكذلك حال الكافر يحسب أن عمله نافعه، فإذا احتاج إلى عمله لم يجده شيئاً، ولا ينفعه^(٢).

ويقول في الآية الكريمة ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْلِ نُورِهِ كَمِثْلِ نُورِهِ كَمِثْلِ نُورِهِ﴾ [النور: ٢٥]: «فإن قيل: لم شبه بالكوكب ولم يشبه بالشمس والقمر؟ أجيب: بأنهما يلحقهما الخسوف والكسوف، والكواكب لا يلحقهما ذلك»^(٣).

ومن صور التشبيه التي التفت إليها الشريبي: (التشبيه البليغ)، وهو التشبيه الذي تحذف منه أداة التشبيه ووجد الشبه معاً^(٤)، يقول في الآية الكريمة ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمَ رِئْسَ الْمَصِيرِ ۝ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢، ١٦٣]: «هُمْ دَرَجَاتٌ» المعنى: أنهم متفاوتون في الجزاء على حسبهم، كما أن الدرجات متفاوتة، فهو تشبيه بليغ يحذف الأداة، أي: هم مثل الدرجات في التفاوت»^(٥).

كما التفت إلى (التشبيه المعكوس)، أو (المقلوب)، وهو الذي يجعل فيه المشبه به مشبهاً^(٦)، يقول في الآية الكريمة ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]: «هذا من عكس التشبيه مبالغة، إذ به صار المشبه مشبهاً به، وبالعكس وشأن المشبه به أن يكون أقوى من المشبه»^(٧).

(١) في المطبوع (جاء له)، وما أثبت هو عبارة القرآن الكريم..

(٢) السراج المنير (٢/٦٢٦-٦٢٧).

(٣) السراج المنير (٢/٦٢٣).

(٤) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢/١٨٠).

(٥) السراج المنير (١/٢٦٢).

(٦) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٢/٢٠٧).

(٧) السراج المنير (١/١٨٤).

رابعًا: الكناية والتعريض:

١- الكناية: ومعناها لغة: أن تتكلم بشيء وتريد غيره، و(كُنِيَ عن الأمر): إذا تكلم بغيره مما يُستدل به عليه، نحو (الرفث) و(الغاظط). وتُستعمل الكناية على ثلاثة أوجه:

الأول: أن يُكْنَى عن الشيء الذي يُستفحش ذكْرُهُ.

والثاني: أن يُكْنَى الرجل باسم ولده توقيراً وتعظيمًا.

والثالث: أن تقوم الكناية مقام الاسم، فيعرف صاحبها بها، كما يعرف باسمه، كأبي لهب، اسمه (عبد العزى)، عُرف بكنيته، فسماه الله بها^(١).

ومعناها اصطلاحًا: «أن يُعَبَّرَ عن شيء، لفظًا كان أو معنًى، بلفظ غير صريح في الدلالة عليه، لغرض من الأغراض، كالإبهام على السامع، نحو (جاء فلان)، أو لنوع فصاحة، نحو: (فلان كثير الرماد) أي: كثير القِرَى»^(٢).

وقد وقف الشريبي على (الكناية) في الكتاب العزيز، وبين دلالات ألفاظها، ومن ذلك قوله في الآية الكريمة ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]: «أي: يوم القيامة، لأن هذه الدنيا كلها كيوم واحد يجيء فيه ناس ويذهب آخرون، والموت والآخرة لا بد من كل منهما، وكل ما لا بد منه فهو غاية القرب، والعرب تكنى عن المستقبل بالغد»^(٣).

٢- التعريض: ومعناه لغة: خلاف التصريح، و(المعاريض): التورية

(١) ينظر: لسان العرب (كنى).

(٢) التعريفات ٢٣٨، وينظر: الإيضاح (٣١٨/٢)، التلخيص ٣٣٧، كتاب الصناعتين ٣٦٨.

(٣) السراج المنير (٢٥٦/٤)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (١٥٥/٢)، (١٧١/٣)، (٥٢٥).

بالشيء عن الشيء^(١)، ومعناه اصطلاحًا: «ما يُقهِمُ به السامع مراده من غير تصريح»^(٢).

وقرن البلاغيون (التعريض) بـ(الكناية)؛ لأنهم جعلوه قسمًا من أقسامها^(٣)، وقد بين الشريبي ما في الآيات من تعريض، يقول في الآية الكريمة ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]: «تعريض للمؤمنين، لتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم، وإيثارهم ذلك على السكون والراحة، وكره ذلك المنافقون، وكيف لا يكرهون وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان»^(٤)، ويقول في الآية الكريمة ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]: «دليل على أن الأولى له أن لا يفعل، كما أنك إذا قلت للمريض: (إن كنت تأكل الفاكهة فكل التفاح)، كان معناه: أن الأولى بك أن لا تأكله، فذكر تعالى بطريق الرمز والتعريض أن الأولى تركه، ثم انتقل الله عز وجل من التعريض إلى التصريح بقوله: ﴿وَلَيْنَ صَبْرًا لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام، لأن الرحمة أفضل من القسوة، (والصبر)^(٥) أفضل من الانتقام»^(٦).

(١) ينظر: لسان العرب (عرض).

(٢) التعريفات ٩١ .

(٣) ينظر: فنون بلاغية ١٨٢-١٨٣ .

(٤) السراج المنير (١/٦٣٧).

(٥) في السراج المنير (الانتفاع) وما أثبتته هو ما يقتضيه السياق.

(٦) السراج المنير (٢/٢٧٢).

المبحث الثالث علم البديع والإعجاز العلمي للقرآن الكريم

أولاً: علم البديع:

معنى (البديع) لغة: المحدث العجيب، و(البديع): المبدع، و(أبدعت الشيء): اخترعته لا على مثال، و(البديع): من أسماء الله تعالى، لإبداعه الأشياء وإحداثه إياها، وهو البديع الأول قبل كل شيء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي: خالقها ومُبدعها، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثال سابق^(١). ومعنى (علم البديع) اصطلاحاً: «ما يُعرف به وجوه تحسين الكلام»^(٢) وتقسم (مُحَسِّنَات الكلام) إلى (لفظية) و(معنوية)^(٣)، ومن المحسنات اللفظية التي ذكرها الشريبي:

١- الجناس المخرّف: وهو الاختلاف في هيئات الحروف^(٤)، يقول في الآية الكريمة ﴿ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنَّمَا كُنْتُمْ تَمُرَّحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]: «قوله تعالى: (تفرحون) و(تمرحون) من باب (التجنيس المخرّف)، وهو أن يقع الفرق بين اللفظين بجرف»^(٥).

٢- الفواصل (المحافظة على رءوس الآي): وهي حروف متشاكلة في المقاطع توجب حس إنهام المعاني، والفواصل بلاغة، والأسجاع عيب، وذلك

(١) ينظر: لسان العرب (بدع).

(٢) الإيضاح ٣٣٤، وينظر فنون بلاغية ١٩٦-٢١٠.

(٣) ينظر: فنون بلاغية ٢٠٦.

(٤) ينظر: الإيضاح (٢/٣٨٤)، التلخيص ٣٨٩، معجم المصطلحات البلاغية (٢/٨١).

(٥) السراج المنير (٣/٤٩٧).

أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها^(١)، يقول الشربيني في الآية الكرمة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٣]: «تقديم (رزقناهم) على (ينفقون) للاهتمام به، وللمحافظة على رءوس الآي^(٢)، ويقول في الآية الكرمة ﴿وَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]: «(تبتيلًا) مصدر (تبتل)، جيء به رعاية للفواصل، وهو ملزوم (التبتل)، قال الزمخشري: فإن قلت: كيف قيل: (تبتيلًا) مكان (تبتلًا)؟ قلت: لأن معنى (التبتل): بَتَّلَ (نفسك)^(٣)، فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل^(٤)».

ومن المحسنات المعنوية التي ذكرها الشربيني:

١- الالتفات: وهو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، تطرية واستدرازا للسامع، وتجديدًا لنشاطه، وصيانة لخاطره من الملل والضجر، بدوام أسلوب واحد على سماعه^(٥).

والسكاكي ذكر (الالتفات) مرتين في (علم المعاني)^(٦)، ومرة في (علم البديع)^(٧). وأما القزويني فقد جعله في (علم المعاني)^(٨). والراجح أنه من موضوعات (علم البديع)، لا من (أحوال الجملة) التي هي من موضوعات

(١) النكت في إعجاز القرآن ٨٩، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية (٣/١٢٩-١٣١).

(٢) السراج المنير (١/١٨).

(٣) هكذا هي في نص الزمخشري، وفي نص السراج المنير (نفسه).

(٤) السراج المنير (٤/٤١٧)، وينظر كذلك: الكشاف (٤/١٧٧) طبعة الخليلي.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٣١٤)، الإتيان في علوم القرآن (٢/١٨٤)، معترك الأقران

(١/٢٨٦).

(٦) ينظر: مفتاح العلوم ٩٥، ١١٨.

(٧) ينظر: المصدر نفسه ٢٠٢.

(٨) ينظر: الإيضاح (١/٧١-٧٥).

(علم المعاني)، ولذلك جعله أبو هلال العسكري^(١)، والزرکشي^(٢)، وجمال الدين السيوطي^(٣) في (علم البديع)، وعده ابن جني من (شجاعة العربية)^(٤).

وقد بين الشريبي الأسباب التي تقود إلى الالتفات، واستقصى أقسامه، يقول في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: «لم يعدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ أجيب: بأن عادة العرب التفتن في الكلام، والعدول عن أسلوب إلى آخر، تحسيناً للكلام، وتنشيطاً للسامع، فيكون أكثر إصغاءً للكلام، فتعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، وبالعكس فيهما، فهذه أقسام أربعة ذكرها البيضاوي^(٥). والتحقيق، كما قاله بعض المتأخرين، أنها ستة، لأن الملتفت إليه اثنان، وكل منهما غيبة أو خطاب أو تكلم، من ذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، الأصل (بكم)، فهو التفتت من الخطاب إلى الغيبة، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُفِيئُ سَحَابًا مَسْكُوتَةً﴾ [فاطر: ٩]، الأصل (فساقه)، فهو التفتت من الغيبة إلى المتكلم^(٦).

والالتفات يكون لأسباب، فصل الشريبي القول فيها، يقول في الآية الكريمة ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَعْيِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢٠، ٢١]: «أقبل تعالى عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، تحريكاً للسامع وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وجبراً لمشقة العبادة بلذة المخاطبة^(٧)،

(١) ينظر: كتاب الصناعتين ٣٩٢.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن (٣/٣١٤).

(٣) ينظر: الإقتان في علوم القرآن (٢/١٨٤)، معترك الأقران (١/٢٨٦).

(٤) ينظر: الخصائص (٢/٣٦٠).

(٥) ينظر: أنوار التنزيل ٤، الكشاف (١/١٣-١٤) طبعة دار الكتاب العربي.

(٦) السراج المنير (١/١٠-١١).

(٧) السراج المنير (١/٣١).

ويقول في الآية الكريمة ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢١) ليس: [٢٢]: «أصله (ولما لكم لا تعبدون)، ولكنه صرف الكلام عنه، ليكون الكلام أسرع قبولاً، حيث أراد لهم ما أراد لنفسه، والمراد تفرغهم على تركهم عبادة خالقهم إلى عبادة غيره، ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، دون (وإليه أرجع)، مبالغة في التهديد، وفي العدول عن مخالفة القوم إلى حال نفسه مبالغة في الحكمة، وهي أنه لو قال: (ما لكم لا تعبدون الذي فطركم) لم يكن في البيان مثل قوله: (ما لي)، فلا أحد يخفى عليه حال نفسه»^(١).

٢- الاستدراج: وعده الزمخشري من (التعريض والتورية)، وهو أسلوب من أساليب الجدل، يكون «أنضل»^(٢) بالمجادل إلى الغرض، وأهجم به على الغلبة، مع قلة شغب الخصم، وقل شوكته بالهويناء^(٣)، يقول الشريبي في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّاهُ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ من الآية الكريمة: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّاهُ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤]: «إنما هذا الكلام جارٍ على ما تخاطب به العرب من استعمال الإنصاف في محاوراتهم، على سبيل الفرض والتقدير، ويسميه أهل البيان (الاستدراج)، وهو أن يذكر لمخاطبه أمراً يُسَلِّمُ به، وإن كان بخلاف ما يذكر حتى يصغي إلى ما يلقيه إليه، إذ لو بدأه بما يكره لم يصغ، ونظيره قولهم: (أخزى الله الكاذب مني ومنك)، ومثله قول حسان رضي الله عنه يريد الرسول ﷺ وأبا سفيان.

(١) السراج المنير (٣/٣٤٥)، وينظر: الكشاف (٣/٣١٩)، طبعة الحلبي، وينظر كذلك على سبيل المثال: السراج المنير (١/٧٤، ٦٣٠)، (٢/٢١٢، ٣٢١)، (٣/١٨٣، ٤٥٥)، (٤/١٠٩، ٤٤٥).

(٢) أنضل؛ أي: أسبق.

(٣) الكشاف (٣/٢٨٩) طبعة الحلبي.

أتهجوه ولست له بكفءٍ فشركما لخيركما الفداء^(١)
مع العلم لكل أحد أنه ﷺ خير خلق الله كلهم^(٢).

٣- الازدواج أو المزوجة: وهو أن يزوج بين معنيين في الشرط والجزاء،
أو ما جرى مجراها^(٣)، يقول الشريبي في الآية الكريمة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾
[التوبة: ٦٧]: «معناه: أنهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسي، فجازاهم بأن
صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته، وجاء هذا على مزوجة الكلام، كقوله
تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً يَنْتَهَى﴾ [الشورى: ٤٠]»^(٤).

وبعد، فهذه موضوعات من (علم البديع) قطفتها من تفسير (السراج
المنير)، من بين موضوعات أخرى، كالكلف والنشر^(٥)، والمشكلة^(٦)،
والمطابقة^(٧)، والمقابلة^(٨)، وطبي الذكر^(٩)، وغيرها.

وقد يجمع الشريبي بين (المعاني) و(البيان) و(البديع) في تحليل النص
القرآني، لبيان ما فيه من بلاغة وإعجاز، يقول في سورة (الكوثر): «قد احتوت
هذه السورة، على قصرها، على معاني بليغة وأساليب بديعة، ومنها: دلالة
استهلال السورة على أنه تعالى أعطاه كثيراً من كثير، ومنها إسناد الفعل إلى

(١) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري (١٨/١).

(٢) ينظر: السراج المنير (٢٩٧/٣).

(٣) ينظر: الإتيان (٢٠٣/٢)، معترك الأقران (٣١٢/١)، كتاب الصناعتين ٢٦٠، معجم
المصطلحات البلاغية (٩٧/١).

(٤) السراج المنير (٦٢٩/١).

(٥) ينظر: المصدر نفسه (٨٦/١).

(٦) ينظر: المصدر نفسه (١٢٧/١)، (١٢/٣).

(٧) ينظر: المصدر نفسه (٣٠٢/٣)، (١٣٨/٤).

(٨) ينظر: المصدر نفسه (٤٩٠-٤٩١).

(٩) ينظر: المصدر نفسه (٤٦٥/٣).

المتكلم المعظم نفسه، ومنها إيراد بصيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ومنها تأكيد الجملة بإن، ومنها بناء الفعل على الاسم ليفيد الإسناد مرتين، ومنها الإتيان بصيغة تدل على المبالغة في الكثرة، ومنها حذف الموصوف بالكوثر لأن في حذفه من فرط الشياخ والإبهام ما ليس في إثباته، ومنها فاء التعقيب الدالة على السبب، فإن الإنعام سبب للشكر والعبادة، ومنها التعريض بمن كانت صلواته ونحوه لغير الله تعالى، ومنها أن الأمر بالصلاة إشارة إلى الأعمال البدنية التي النحر أسناها، ومنها حذف متعلق (انحر)، إذ التقرير: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر له، ومنها مراعاة السجع، فإنه من صناعة البديع العاري عن التكلف، ومنها قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾، وفي الإتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المروي له والمصلح بنعمه، فلا يلتمس كل خير إلا منه، ومنها الالتفات من ضمير المتكلم إلى الغائب في قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾، ومنها الأمر بترك الاهتمام بشانته، للاستئناف، وجعله خاتمة للإعراض عن الشانئ، ولم يسمه ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة القيحة، ولو كان المراد شخصاً معيناً لعينه الله تعالى، ومنها التنبيه بذكر هذه الصفة القيحة على أنه لم يتصف إلا بمجرد قيام الصفة به، من غير أن تؤثر فيمن يشنؤه شيئاً البتة، لأن من يشنأ شخصاً قد يؤثر فيه شنؤه شيئاً، ومنها تأكيد الجملة بـ(أن) المؤذنة بتأكيد الخبر، ولذلك يتلقى بها القسم، وتقدير القسم يصلح هنا، ومنها الإتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد إن جعلنا (هو) فصلاً، وإن جعلناه مبتدأ فكذلك يفيد التأكيد، إذ يصير الإسناد مرتين، ومنها تعريف (الأبتر) بـ(ال) المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة، كأنه قيل: الكامل في هذه الصفة، ومنها إقباله تعالى على رسوله بالخطاب من أول السورة إلى آخرها^(١).

(١) ينظر: السراج المنير (٤/٥٩٨).

ثانيًا: الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

وفي مواضع قليلة من تفسيره، تعرض الشريبي لما في القرآن الكريم من إعجاز علمي، يدل على عظمة الخالق، ويهدي إليه، ففي تفسيره للآية الكريمة ﴿وَأَرْحَى رَيْكُ إِلَى النَّعْلِ أَنْ تَحْمِلِي مِنَ اللَّيَالِ يُونَا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمْرَاتِ فَاسْتَلِكِي سُبُلَ رَيْكِ ذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل: ٦٨-٦٩] تكلم على عجيب خلق الله في النحل، ومن دقة صنعها ليوثها، وكيف تجمع الرحيق، وتصنع العسل، وردَّ الرازي فيما ذهب إليه من أن العسل ظل ينزل من السماء، ثم يجمعه النحل من رهوس الأشجار والأزهار^(١). وأكد الشريبي أن العسل يكون من رحيق الأزهار، بدليل أننا نجد طعوم تلك الأزهار في العسل^(٢).

ولكنه في تفسيره لبعض الظواهر الكونية، نقل فيها أقوالاً ذهبت بعيداً عن التفسير العلمي لها، ومن ذلك قوله في تفسير الآية الكريمة ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [البقرة: ١٦٤]: «إن السحاب من شجرة مثمرة في الجنة، والمطر من بحر تحت العرش»^(٣).

وأخيراً أقول: فهذا الكتاب العزيز، الذي أبي الله تعالى أن يؤتى بمثله، ولو كان الناس بعضهم لبعض ظهيراً، كان من إعجازه العجز عن الوقوف على كل أسرار إعجازه؛ لأنه المعجزة الكبرى التي لا تنقضي أسرارها.

(١) ينظر: التفسير الكبير (٧١/٢٠).

(٢) ينظر السراج المنير (٢/٢٤٤-٢٤٦)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (١/٢٨، ١٠٩)، (٢/١٤٥، ٤٢٩)، (٣/١٦١-١٦٥، ٣٦٦)، (٤/٨٠، ٤٩٣).

(٣) السراج المنير (١/١٠٩)، وينظر كذلك على سبيل المثال: (١/٣٣).